في علاقة النص بالمقام
سورة الكهف نموذجا

مفتاح بن عروس
جامعة الجزائر

تمهيد

يحاول هذا العمل النظر في كيفية ارتباط النص بالمقام في القرآن الكريم، آخذا نموذجا لذلك سورة الكهف وساعيا للإستفادة من التراث الضخم الذي تركه لنا علماء البلاغة والمفسرون ومن اهتموا بالنص القرآني اهتماما خاصا يهدف إلى تأسيس مختلف العلوم التي تدور حوله كالزركشي والسيوطي.

وتشفع هذه المحاولة بمحاولة أخرى لاستغلال بعض مستجدات التحليل اللساني للنصوص العامة والتحليل التداولي خاصة. وهذه المزاوجة بالإضافة، إلى ما تعكسه من ارتباط بالتراث واستغلاله، تجتهد للإستفادة في تحليلها من مفهوم النص كوحدة معنوية تتبلور تدريجيا عند القارئ بناء على معطيات نصية داخلية ومعطيات خارج–نصية، لتصل إلى ما يسميه

جان ميشال آدم (Jean Michel ADAM) المستوى التداولي التمثيلي (niveau pragmatico-configurationnel).

وعلى هذا الأساس سينصب اهتمامنا على تحليل سورة الكهف:

- داخليا باعتبارها كلا يحقق الخاصيتين الأساسيتين وهما الإتساق والإنسجام.

- خارجيا من خلال ربطها بالمعطيات الخارجية باعتبارها جوابا على سؤال ذي شقين وجه للنّبي صلى الله عليه وسلم يتعلق بأهل الكهف وبذي القرنين.

إن النظر إلى سورة الكهف من منظور الإتساق والإنسجام من جهة، ومن منظور علاقتها بالمقام باعتبارها جوابا من جهة أخرى، يفرض علينا أن نعرج أولا على مفهوم النص ثم على مفهوم السورة. ويشكل هذا مدخلا للتحليل الذي سنقوم به فيما بعد.

وهكذا سيتمحور عملنا حول النقاط التالية:

I - حول تحديد بعض المفاهيم

1 - مفهوم النص.

2 - مفهوم السورة.

II - حول سورة الكهف

1 - وصف عام.

2 - أسباب النزول

3 - عرض بنية السورة من خلال بعض المفسرين.

أ - بنية السورة من خلال الرازي.

ب - بنية السورة من خلال الطاهر بن عاشور.

جـ - بنية السورة من خلال سيد قطب.

4 - حول بعض السياقات الواردة في هذه السورة.

5 - البنية الخطابية في السورة.

6 - علاقة بنية السورة بالمعطيات المقامية.

أ – مسألة السؤال والجواب.

ب – بنية الجواب في السورة.

I - حول تحديد بعض المفاهيم

1 - في مفهوم النص.

لقد عرضنا في مداخلة الملتقى السابق(1) كيف بدأ يتبلور مفهوم النص حينما لاحظ الباحثون وجود ظواهر لغوية تتجاوز حدود الجملة. وبدأ هذا التبلور بتساؤلات نجدها عند ايوالد لانغ (Ewald LANG) في عنوان مقال له: «متى يكون نحو نص أنسب من نحو جمل(2) "Quand "une grammaire de texte" est elle plus adéquate qu'une "grammaire de phrase"?"

وأوصله هذا التساؤل إلى نتيجة كثيرا ما استند عليها من جاؤوا بعده وهي أن النص ليس كما من الجمل(3). غير أن هذا الإهتمام لم يقف عند حدود هذا الجانب الوصفي الذي يسعى إلى ايجاد مختلف الروابط التي تربط الجمل لتحقيق الإتساق، بل تجاوز هذا الجانب الخطي إلى جانب غير خطي وهو الإنسجام (cohérence).

وطرحت إشكالية الإنسجام في النص علاقة النص بالمعطيات الخارجية. ولعل أهم من اهتم بهذه المسألة هما ج. يول (G. YULE) و ج. بروان (G. BROWN) في كتابهما «تحليل الخطاب» (Discourse Analysis). وقد عرض منظورهما محمد خطابي في مؤلفه «لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب». ويتمثل هذا المنظور في جعل «المتكلم/الكاتب والمستمع/القارئ

في قلب عملية التواصل»(4). ولا يمكن «قيام عملية تواصل بدون الأطراف المساهمة فيها. بل لن يتسنى فهم وتأويل التعابير والأقوال (الخطاب بصفة عامة) إلا بوصفها في سياقها التواصلي زمانا ومكانا ومشاركين ومقاما»(5). وترجمة لهذا المفهوم ينقل من كتابهما المذكور هذا السياق:

«سنعتبر الكلمات والعبارات والجمل التي تظهر في التدوين النصي لخطاب ما بينة على محاولة منتج (متكلم/كاتب) إيصال رسالة إلى متلق (مستمع/قارئ). وسنهتم على الخصوص ببحث كيفية وصول متلق ما إلى فهم الرسالة المقصودة من قبل المنتج في مناسبة معينة»(6).

وعلى هذا الأساس على محلل الخطاب أن يأخذ بعين الإعتبار السياق الذي يظهر فيه الخطاب. وهذا السياق يتكون من المتكلم/الكاتب والمستمع/القارئ والزمان والمكان. لأن ذلك يؤدي دورا فعالا في تأويل الخطاب(7).

إن ربط الخطاب بالمتلقي هو الذي سمح لـ مانغنو (MAINGUENEAU) في مؤلفه "Pragmatique pour le discours littéraire" (1990) من النظر إلى مسألة الإنسجام من زاوية المتلقي/القارئ. فهو (أي الإنسجام) «لا يوجد في النص ولكن يقرأ عبره ولذلك فهو يفترض وجود القارئ»(8). وبهذا المعنى فهو «ليس خاصية مرتبطة بالنص بقدر ما هو نتيجة استراتيجيات واجراءات يضعها القراء لبنائه انطلاقا من إشارات النص»(9).

ولعل اعتبار الإنسجام من صنع القارئ/المتلقي هو الذي هيأ له الأرضية أيضا للكلام عن مكونات القراءة التي تسمح بتحقيقه. يقول في هذا السياق «إن فهم-تفكيك نص، هو استنفار مجموعة متنوعة من القدرات لقطع مساحة خطابية موجهة زمنيا بانسجام»(10).

وهكذا فإن مباشرة القارئ لنص ما تفترض:

1 - الإعتماد على معرفة سياق الحديث (contexte énonciatif) وتتفرع هذه النقطة إلى:

- معرفة الفترة الزمنية
- معرفة المؤلف
- معرفة الظروف القريبة والبعيدة
- الجنس الذي ينتمي إليه الخطاب

2 - معرفة نحو اللغة (نحو الجملة)

3 - امتلاك مجموعة من القواعد المتعلقة بتنظيم النص (نحو النص).

وبذلك يكون للنص بعد داخلي يتمثل في الإتساق والإنسجام وبعد خارجي يربطه بالمرسل والمتلقي والظروف الزمانية والمكانية ويمكن تمثيل هذين البعدين كما يلي:

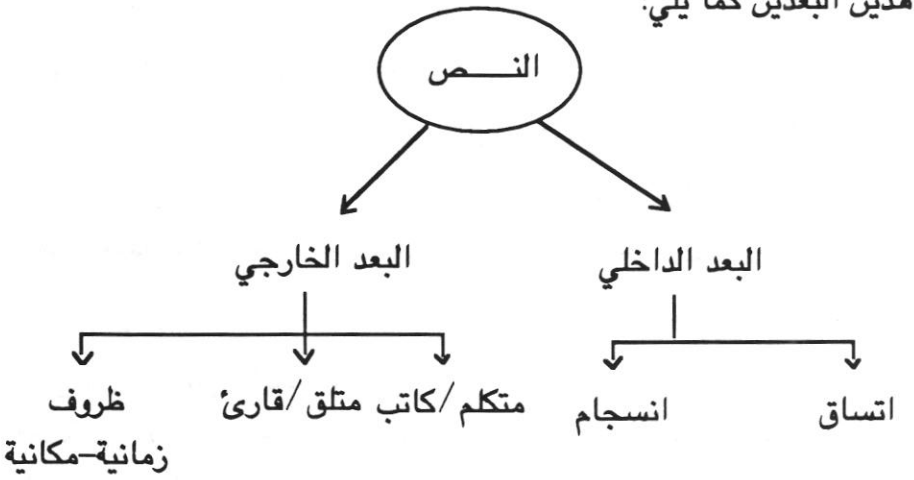

ويبلور جان ميشال آدم (J. M. ADAM) المعطيات السابقة في شكل فرضيات أساسية تتعلق بالنص، تتولد عنها فرضيات فرعية. ومن هذه الفرضيات الأساسية:

1 - أن «النص هو منتوج مترابط متسق ومنسجم وليس رصفا اعتباطيا للكلمات والجمل والجميلات والأفعال الكلامية»(11).

وتتولد عن هذه الفرضية الأساسية فرضيات فرعية أهمها:

أ – أن «أثر نص هو منتوج تكامل مزدوج: تداولي (تمثيلي) ومقطعي»(12).

ب – أن «قراءة–فهم النص يمكن أن يفكر فيها من منظور أنها حل لإشكاليات»(13).

2 - في مفهوم السورة:

جاء في «لسان العرب»(14) ما يلي:

السورة المنزلة والجمع سُوَرٌ وسُورٌ

والسورة من البناء ما حسن وطال

ويورد لابن سيده ما يلي: «سميت السورة من القرآن سورة لأنها درجة إلى غيرها ومن همزها جعلها بقية من القرآن وقطعة وأكثر القراء على ترك الهمزة فيها» وكل منزلة رفيعة فهي سورة مأخوذة من سورة البناء

ألَمْ تَر أن اللّهَ أعطاكَ سورة ترى كل ملْكٍ دونها يتذبذب

وينقل عن ابن الهيثم هذا السياق: «والسورة من سور القرآن عندنا قطعة من القرآن سبق وجدانها جمعها كما أن الغرفة سابقة للغرف وأنزل الله عزوجل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم شيئا بعد شيء وجعله مفصلا وبيّن كل سورة بخاتمتها وبادئتها وميزها عن التي تليها».

ومما جاء في «البرهان في علوم القرآن» للزركشي(15):

– السورة تهمز ولا تهمز فمن همزها جعلها من «اسأرت» أي أفضلت من السؤر وهو ما بقي من الشراب في الإناء كأنها قطعة من القرآن.

– من سور البناء أي القطعة منه على سبيل التشبيه أي منزلة بعد منزلة.

– من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور ومنه السوار لإحاطته بالساعد.

ويورد صاحب «كشاف اصطلاحات الفنون»(16) مجموعة من التحديدات اللغوية تلتقي مع التحديدات السابقة ويضيف إليها التعريف الإصطلاحي التالي: «السورة بالضم في الشرع بعض قرآن يشتمل على آي ذو فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات».

ويمكن بلورة التفاصيل السابقة كما يلي:

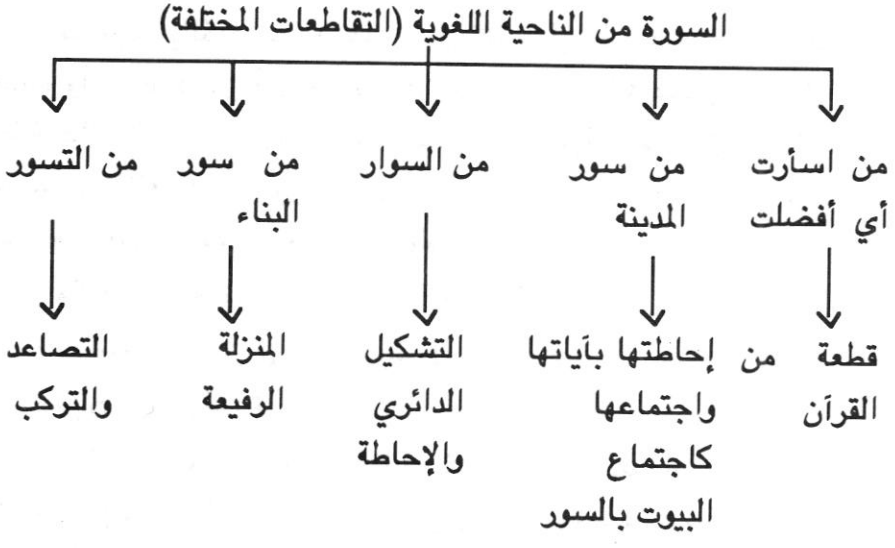

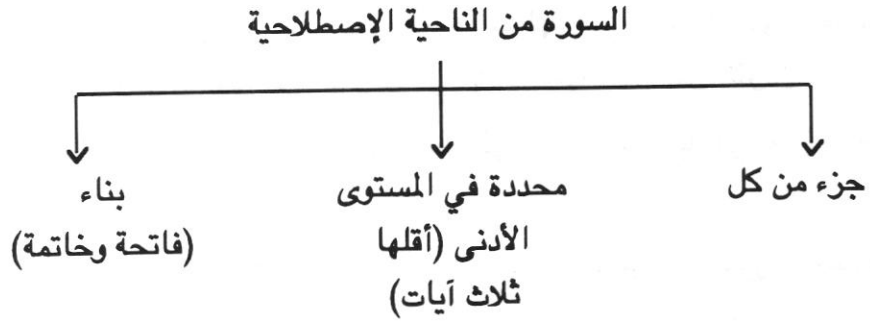

والذي يمكن استخلاصه أن السورة:

- بناء في بناء أكبر منه
- باعتبار خاصية البناء فإن هناك مجموعة من العلاقات تحكم أجزاء هذا البناء.
- وأن هذا البناء يتميز بخاصية التنامي.

II - حول سورة الكهف

1 - وصف عام:

- تسميتها بالكهف مصدرها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد روى مسلم وأبو داوود عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال« من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف» وفي رواية لمسلم: من آخر الكهف، عُصِم من فتنة الدجال» ورواه الترمذي عن أبي الدرداء بلفظ «من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عُصِم من فتنة الدجال»(17).
- مكية بالإتفاق نزلت بعد الغاشية وقبل الشورى
- الثامنة والستون في ترتيب النزول
- نزلت جملة واحدة
- القصص هو العنصر الغالب فيها: قصة أصحاب الكهف، قصة الجنتين، إشارة إلى قصة آدم وإبليس وفي وسطها قصة موسى وفي نهايتها قصة ذي القرنين(18).

2 - سبب النزول:

جاء في تفسير الزمخشري أن اليهود «بعثت إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي. فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم»(19).

وقد جاء هذا السياق وهو بصدد تفسير سورة الإسراء.

ويورد الطاهر بن عاشور رواية مفادها «أن مشركي قريش احتاروا في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وازدياد المسلمين معه وتساؤل القبائل العربية، فبعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود لمعرفة حقيقة الأمر باعتبار معرفتهم علم الأنبياء فاقترح عليهم اليهود ثلاثة أسئلة» قالوا: سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي وإن لم يفعل فالرجل متقول. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وسلوه عن الروح وما هي؟ ... .. فجاء جمع من المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن هذه الثلاثة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبركم بما سألتم عنه غدا (وهو ينتظر وقت نزول الوحي عليه بحسب عادة يعلمها) ولم يقل إن شاء الله. فمكث رسول اللّه ثلاثة أيام لا يُوحَى إليه، وقال ابن اسحاق خمسة عشر يوما فأرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا اليوم عدة أيام لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه حتى أحزن ذلك رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وشق عليه ثم جاء جبريل عليه السلام بسورة الكهف»(20).

ويلخص سيد قطب المسألة كما يلي: «وقد ورد في سبب نزولها ونزول قصة ذي القرنين أن اليهود أغروا أهل مكة بسؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عنهما وعن الروح أو أن أهل مكة طلبوا إلى اليهود أن يصوغوا لهم أسئلة يختبرون بها الرسول صلى الله عليه وسلم»(21).

والذي يمكن استخلاصه:

- هناك ثلاثة أسئلة وجهت للنبي صلى الله عليه وسلم
- وعد النبي بالإجابة عن هذه الأسئلة
- تأخر الوحي (3 أو 15 يوما).

حينما ننظر إلى هذه الرواية المتعلقة بسبب النزول في سياقها التاريخي نخرج بالخلاصة التالية:

- هناك باحث عن سؤال ليتأكد من أمر
- مقترح لسؤال (أسئلة) مع سبق معرفته (بغض النظر عن نوعية هذه المعرفة)
- موجه له السؤال (النبي صلى الله عليه وسلم)

وإذن فـ:

- المقام مقام امتحان
- اختيار مقترح السؤال لهذه الأسئلة دون غيرها تعكس تصورة أن الموجه له السؤال لا يستطيع الإجابة(22) .

سنحاول النظر إلى سورة الكهف على ضوء هذه المعطيات، ولكن قبل ذلك، نعرض ثلاث محاولات لبلورة هذه السورة، وهي محاولات تعكس ماذكرناه آنفا من أن الإنسجام يصنعه القارئ بناء على معطيات نصية ومعطيات خارج–نصية. والمحاولة الأولى من هذه المحاولات للرازي في «التفسير الكبير» والثانية للطاهر بن عاشور في «تفسير التحرير والتنوير» أما الثالثة فهي لسيد قطب في «في ظلال القرآن».

ولعل نقطة التقاطع التي تجمع هؤلاء المفسرين هي تجاوز التفسير الخطي التدرجي من آية إلى آية إلى النظر إلى السورة ككل. وقد ساعدتنا كثير من الإشارات في ثنايا التفسير أن نبلور بنية السورة عند كل منهم. وسنعرض فيما يلي هذه البنيات على الترتيب المذكور آنفا.

أ - بنية السورة من خلال الرازي(23)

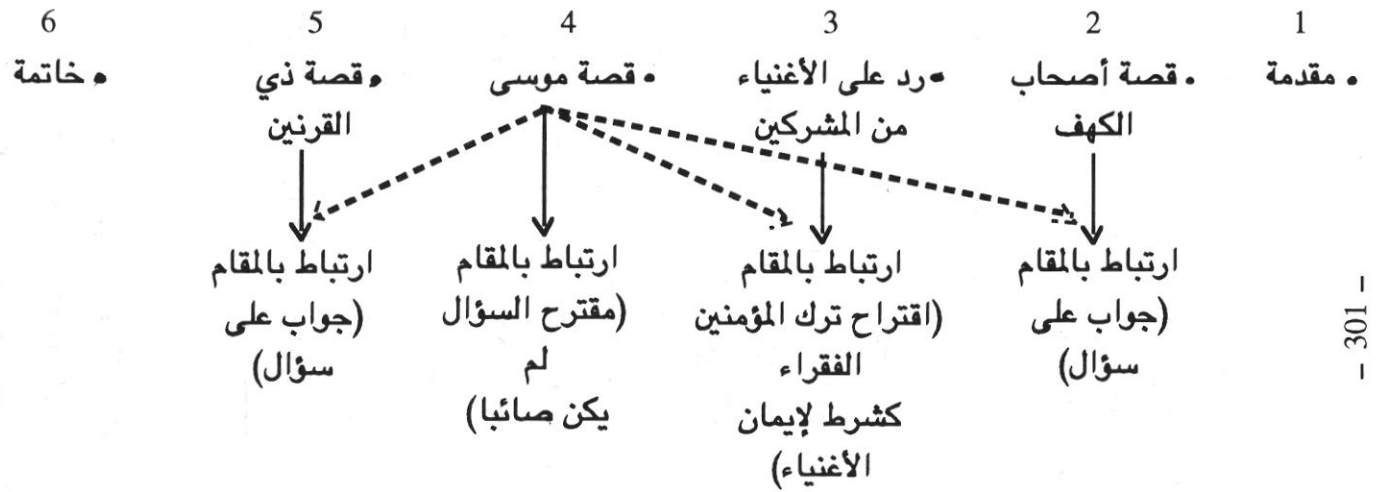

فواصل هذه الأجزاء من اليمين ومن اليسار

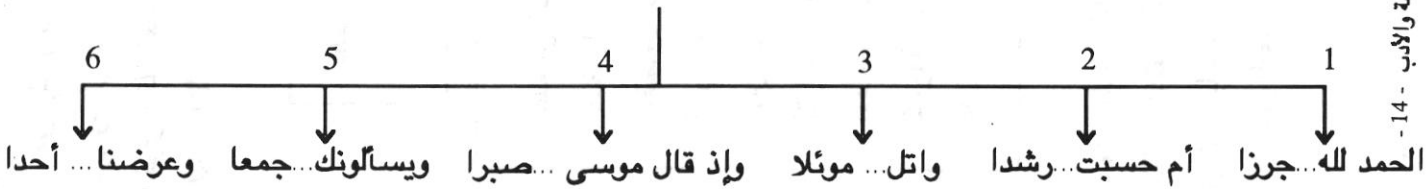

من إشارات الرازي المساعدة على هذا التحديد: الإشارة الأولى قوله حين وصل إلى تفسير قوله تعالى: «واتل ما أوحي إليك» ويعود في حوصلة أخرى أثناء تفسير قوله تعالى: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ...» رابطا الجزء الثالث بالمقام:

> اعلم أن هذه الآية إلى قصة موسى والخضر كلام واحد في قصة واحدة ص 131

> اعلم أن المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين. وهذه الآية المقصود فيها عين هذا المعنى وذلك أن إبليس إنما تكبر على آدم لأنه افتخر بأصله ونسبه وقال خلقتني من نار وخلقته من طين فأنا أشرف منه في الأصل والنسب فكيف أسجد وكيف أتواضع له. وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف نجلس مع هؤلاء الفقراء مع أنا من أنساب شريفة وهم من أنساب نازلة ونحن أغنياء وهم فقراء ص 136-137.

والإشارة الثالثة يوردها حين وصل إلى قصة موسى، ويربطها من جهة بالمقام باعتبار أن الذين اقترحوا السؤال كانوا مخطئين، ومن جهة أخرى يربطها بالسياق القبلي (مسألة موقف المشركين من أغنياء المسلمين) وبالسياق البعدي (قصة ذي القرنين) يقول:

هذا وإن كان كلاما مستقلا في نفسه إلا أنه يعين على ما هو المقصود في القصتين السابقتين. أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر. وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة: إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا. وهذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله تعالى أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع كما أن كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود في القصتين المتقدمتين ص 144

ب - بنية السورة من خلال الطاهر بن عاشور(24)

من الإشارات المساعدة على هذا التقسيم قوله:

> ولأن هذه السورة نزلت بسبب ما سأل المشركون والذين أملوا عليهم من أهل الكتاب عن قصتين، قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين وقد تقضى الجواب عن القصة الأولى وما ذُيّلت به وأن ينتقل إلى الجواب عن القصة الثانية فتختم بذلك هذه السورة التي أنزلت لبيان القصتين قدمت لهذه القصة الثانية قصة لها شبه بها في أنها تطواف في الأرض لطلب نفع صالح وهي قصة سفر موسى عليه السلام لطلب لقاء من هو على علم لا يعلمه موسى وفي سوق هذه القصة تعريض بأهل الكتاب بأن الأولى لهم أن يدلوا الناس على أخبار إسرائيل وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان
>
> جـ15، ص 359

جـ - بنية السورة من خلال سيد قطب (في ظلال القرآن)(25)

ينطلق سيد قطب في تفسيره للسورة من ملاحظتين هامتين هما:

1 - المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها ويدور حوله سياقها هو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة.

2 - القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة.

ونحصل بناء على الملاحظة الأولى على الأقسام التالية:

الكهف: تقسيم السياقات بحسب الموضوعات

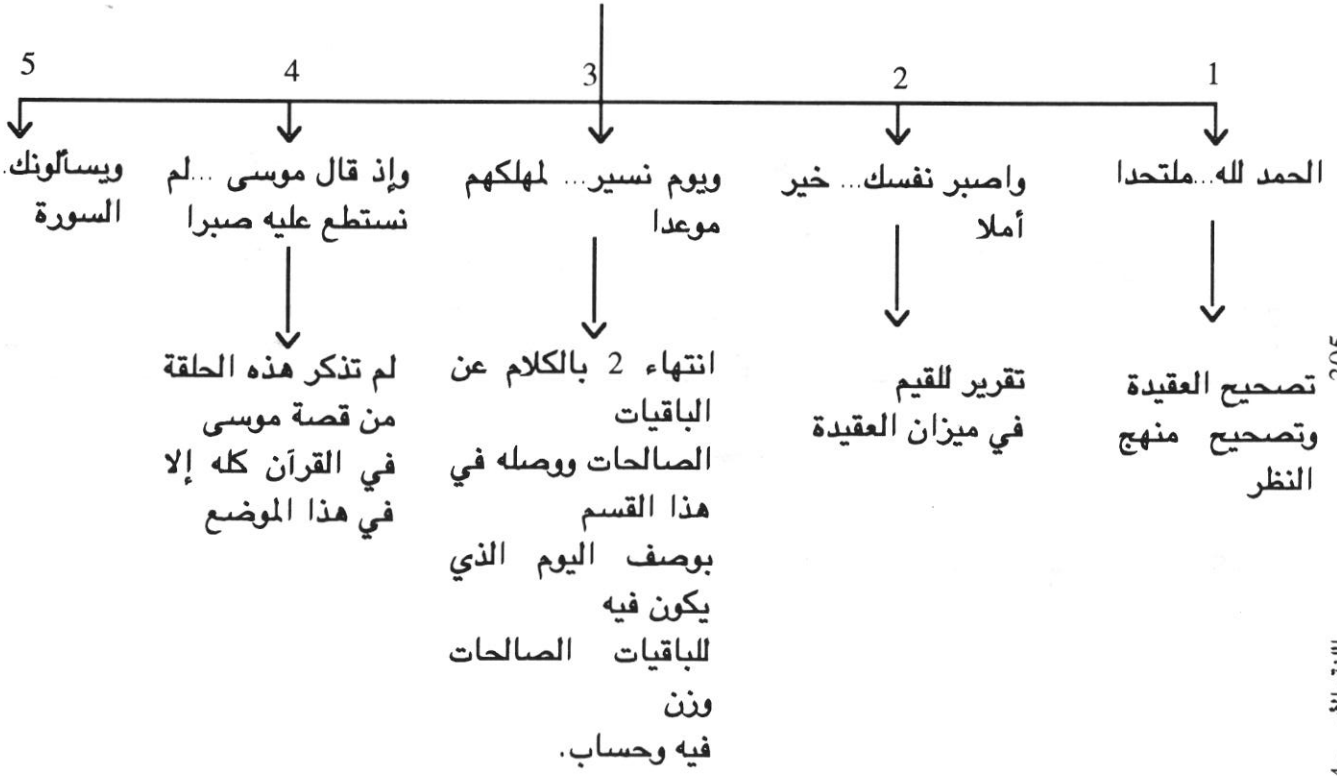

بناء على فهمك للملاحظة الثانية نحصل على:

الكهف

- مقدمة
- قصة أصحاب الكهف + تعقيب
- إشارة إلى قصة آدم وإبليس + تعقيب
- قصة موسى (دون تعقيب)
- قصة ذي القرنين + تعقيب
- خاتمة

4 - حول بعض السياقات الواردة في هذه السورة

يتعلق الأمر في هذه النقطة برصد بعض السياقات التي لها علاقة بالسورة ككل باعتبارها جوابا على ما وُجّه للنبي صلى الله عليه وسلم من أسئلة. وتتميز هذه السياقات بخاصية الإحالة إما الخارجية (référence exhophorique) وإما الداخلية (référence endophorique)(26) في الإتجاهين الورائي والأمامي. وتناولنا لهذه السياقات ينطلق أساسا مما ورد في كتب المفسرين من تحليل لها.

أ- السياق الأول: قوله عزّ وجل:

«أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا»

يربط الزمخشري هذا السياق بما قبله بالشكل التالي «ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض بما خلق فوقها من الأجناس التي لا حصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن ثم قال «أم حسبت» يعني أن ذلك من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة»(27).

وينظر إليه الرازي نظرة مختلفة يقول «اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الإمتحان فقال تعالى: أم حسبت أنهم كانوا عجبا من أياتنا فقط، فلا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب. فإن من كان قادرا على تخليق السماوات والأرض ثم يزين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية من الكل كيف تستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم. هذا هو الوجه في تقرير النظم»(28).

ويورد الألوسي في هذا الصدد غاية في الأهمية لأنه يحدد إحالة الضمير في «أم حسبت». يقول: «... خطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه

وسلم والمقصود غيره كما ذهب إليه غير واحد ... والمعنى أن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات التي من جملتها ما تقدم ... يعني أن ذلك (ما ورد ذكره من آيات في السياق القبلي) أعظم من هذا، فمن لا يتعجب من ذلك لا ينبغي أن يتعجب من هذا وأريد من الخطاب غيره صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يعرف من قدرته تعالى ما لا يتعاظمه لا الأول ولا الثاني فأنكر اختلافهم في حالهم تعجبا وإضرابهم عن مثل تلك الآيات»(29).

ويعتبر الطاهر بن عاشور أكثر وضوحا في تحديد القيمة الإحالية لهذا السياق، ويدرج في ثنايا تفسيره له ما يلي:

«ليس أصحاب الكهف من أعجب آياتنا بل هناك ما هو أعجب منها»

«أحسبت أن أصحاب الكهف كانوا عجبا من بين آياتنا أي أعجب من بقية آياتنا فإن إماتة الأحياء بعد حياتهم أعظم من إنامة أهل الكهف لأن في إنامتهم إبقاء للحياة في أجسامهم وليس في إماتة الأحياء إبقاء لشيء من الحياة فيهم على كثرتهم وانتشارهم. وهذا تعريض بغفلة الذين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان قصة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب بأنهم سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب وهو انقراض العالم ... وفيها لفت لعقول السائلين عن الإشتغال بعجائب القصص إلى أن الأولى لهم الإتعاظ بما فيها من العبر والأسباب وآثارها»(30).

وهكذا يمكن حوصلة التفاصيل السابقة كالتالي:

آية أصحاب الكهف مقارنة بآيات الله الأخرى

المفسر	طبيعة العلاقة بين آية أصحاب الكهف وغيرها من الآيات	السند اللغوي	نتيجة العلاقة، ربط بالمعطيات الخارجية
الزمخشري	التفاوت: من آيات الله ما هو أعظم من آية أهل الكهف	استعمال اسم التفضيل «أعظم»	– من حسب أن أصحاب الكهف هي أعظم آيات الله فقد أخطأ لأن هناك ما هو أعظم – لم يشر إلى إحالة الضمير في «أم حسبت»
الرازي	الإشتراك تشترك آية أهل الكهف مع آيات الله الأخرى في خاصية العجب	استعمال عبارة: آياتنا كلها عجب	– من حسب أن آية أهل الكهف تتميز بخاصية العجب دون سائر آيات الله فقط أخطأ لأن آيات الله كلها عجب. – تحول الضمير في حسبت إلى أنتم في السياق التفسيري لهذه الآية: كيف تستبعدون (: أنتم)
الألوسي	التفاوت من آيات الله ما هو أعظم من آية أهل الكهف	استعمال العبارتين: – ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات – ... ذلك أعظم من هذا	– من تعجب من آية أهل الكهف ولم يتعجب من الآيات الأخرى السابق ذكرها فهو مخطئ. – تحديد لإحالة الضمير في حسبت فليس المقصود به النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان يعرف من قدرته تعالى ما لا يتعاظمه لا الأول ولا الثاني (ما ذكر قبل آية الكهف وآية الكهف).
الطاهر بن عاشور	التفاوت من آيات الله ما هو أعجب من آية أهل الكهف	استعمال عبارة: هناك ما هو أعجب منها وعبارة: ... إماتة الأحياء..أعظم من إنامة أهل الكهف	– من سأل عن أهل الكهف بحثا عما فيها من العجب فهو غافل (تعريض) لأنه سأل عن عجيب وترك ما هو أعجب – يصبح الضمير في «حسبت» محيلا على الذين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان قصة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب.

ب - السياق الثاني: قوله عزّ وجل

«نحن نقص عليك نبأهم بالحق»

ينظر الطاهر بن عاشور(31) إلى هذا السياق نظرة خطية تأخذ بعين الإعتبار توزيع الأحداث اللغوية المكونة لهذا السياق في التشكيل الخطي فهناك:

- تقديم «نحن» لفائدة الإختصاص وهو ما يسمح له بقراءة السياق هكذا:

«نحن لا غيرنا يقص قصصهم بالحق»

- نقص من القصص وهو سرد خبر طويل

- النبأ هو الخبر الذي فيه أهمية وله شأن

وبهذا يمكن بلورة هذه الجزئيات كالتالي:

نحن لا غيرنا نسرد عليك خبرا طويلا فيه أهمية وله شأن

ويشير الألوسي إلى أن في التقيد «بالحق» إشارة إلى أن في عهده صلى الله عليه وسلم من يقص نبأهم لكن لا بالحق(32)

إن ما يمكن استخلاصه من منظور تحليل السيناريوهات(33) (l'analyse des scénarios):

1 - هناك علاقة خطابية حدد فيها المتكلم والمخاطب وموضوع الخطاب وطريقة عرضه:

المتكلم ← المخاطب

↓

- موضوع الخطاب: نبأهم (هم: الفتية)
- طريقة عرض الخطاب: نقص ... بالحق.

2 - نحن نقص نبأ ← «نحن» ينسجم مع نبأ (ما له أهمية وشأن)

3 - ويترتب عن 1 و 2 ما يلي:

نحن ..... نبأ ..... بالحق

(1) (1) (1)

هم ..... قصتهم بالباطل } المضمر الخطاب الذي
مع التعدد (بحكم الاختلاف } تسوغه المعطيات السابقة

4 - السياقات البعدية تدعم هذه القراءة:

السياق الأول: «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم»

ويفترض هذا السياق:

أ - اهتمام بما ليس له أهمية (اهتمام بعدد الفتية) وترك ما له أهمية (سبب انتقال الفتية إلى الكهف وهو جوهر المسألة)

ب - حتى في الإهتمام بما ليس له أهمية لم يقع اتفاق بينهم

السياق الثاني: «ولا تستفت فيهم منهم أحدا»

ويفترض أنهم ليسوا مصدرا للخبر اليقين بدليل اختلافهم في مسألة العدد.

السياق الثالث: «ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا. قل الله أعلم بما لبثوا».

ويمكن أن نستنتج منه:

- لا يملك الخبر اليقين إلا الله

- ليست وظيفة المتلقي الأول (الرسول صلى الله عليه وسلم) الذي يجسد عبر الفعل «قل» إلا التبليغ.

- تفويض الأمر إلى المتكلم.

جـ- السياق الثالث: قوله عزّ وجل:

«ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا»

- افتتاح الكلام عن ذي القرنين بـ«يسألونك» يدل على أنه مما نزلت السورة للجواب عنه(34).

- التعبير بصيغة الإستقبال لاستحضار الصورة الماضية(35)

- ويسألونك سألوك وسألوك(36)

وعلى ضوء الملاحظات السابقة يمكن تجسيد مختلف الإحالات في السياق كما يلي:

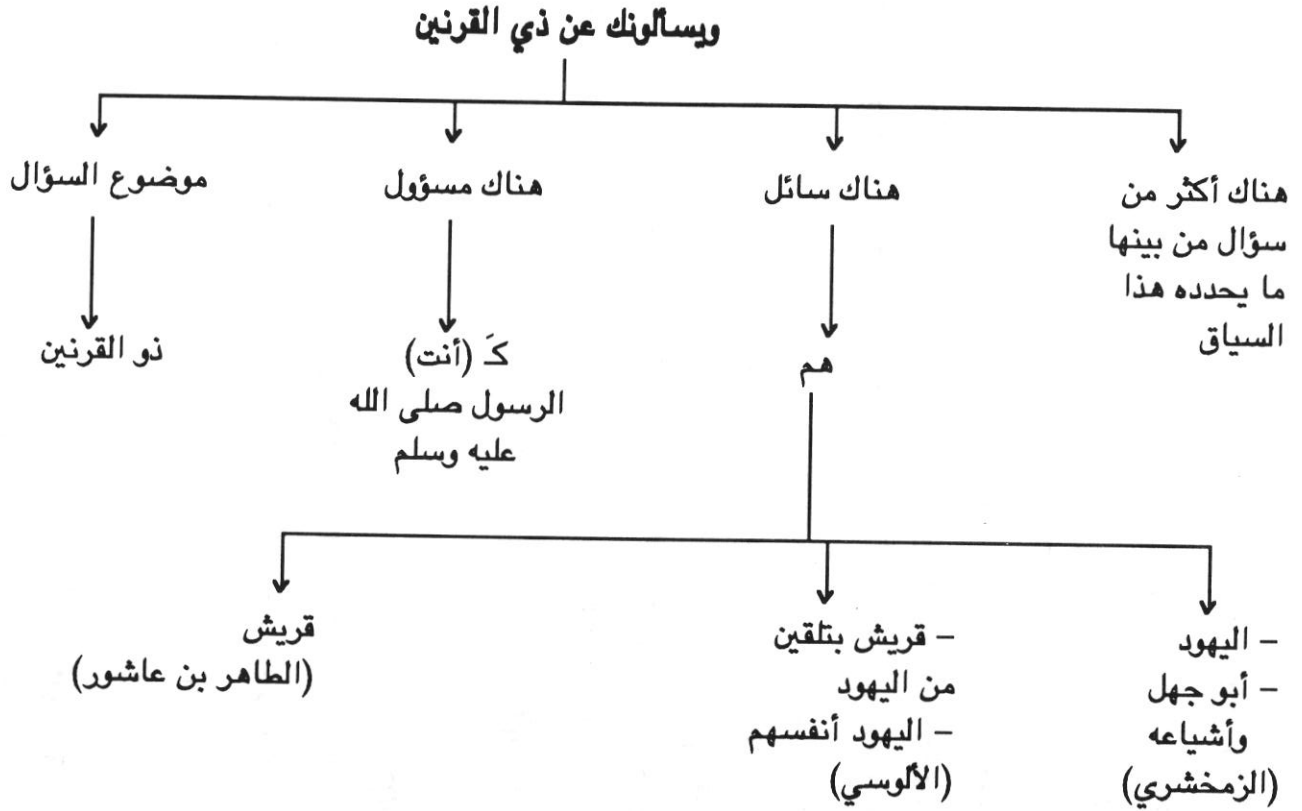
ويسألونك عن ذي القرنين
هناك أكثر من سؤال من بينها ما يحدده هذا السياق
هناك سائل
هم
- اليهود
- أبو جهل وأشياعه
(الزمخشري)
- قريش بتلقين من اليهود
- اليهود أنفسهم
(الألوسي)
قريش
(الطاهر بن عاشور)
هناك مسؤول
كَ (أنت)
الرسول صلى الله عليه وسلم
موضوع السؤال
ذو القرنين

د - السياق الرابع: قوله عز وجل:

«قل سأتلو عليكم منه ذكرا»

ويمكن أن نستنتج منه أن:

- المسؤول لا يملك الجواب

- وظيفة هذا المسؤول لا تتعدى التبليغ عن الذي صدر منه الفعل «قُلْ»

- السؤال بحث عن تفاصيل القصة والجواب «ذكر» أي ما به التذكر كما يقول الطاهر بن عاشور.

5 - البنية الخطابية في السورة:

رأينا في النقطة السابقة الخاصية الإحالية لمجموعة من السياقات وهي خاصية تخدم السورة في مجملها من حيث أنها جواب على ما وُجه للنبي صلى الله عليه وسلم من أسئلة. وارتباطا بنفس السياق نحاول أن نحدد في هذه النقطة فواصل السورة بحسب اتجاه الخطاب وسيكون سندنا في هذا التحديد التجليات اللغوية للمخاطب.

لقد سمح لنا النظر في سورة الكهف من تحديد مجموعة من البنيات الخطابية الجزئية التي تتبلور في النهاية لتشكل بنية خطابية كبرى تخدم السورة باعتبارها جوابا. وهذه البنيات هي:

- البنية الأولى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب..... إن يقولون إلا كذبا

(الكلام منصب على المتكلم (الله)

- البنية الثانية: فلعلك..... {في تأسف النبي وتحسره على عدم إيمان

السياق العام: قصة أصحاب الكهف

قومه} ← وظيفة فعلية ← لا تبخع

(الكلام منصب على المخاطب)

- البنية الثالثة: أم حسبت..... {قصة أصحاب الكهف باختصار}

(المخاطب عام ويحدد فقط بصفته أي من حسب أن أصحاب الكهف أعجب آيات الله).

- البنية الرابعة: نحن نقص عليك..... {قصة أصحاب الكهف تفصيلا}

(تبليغ للرسول)

- البنية الخامسة: قل وفي أعلم بعدتهم } ← وظيفة تبليغية
- البنية السادسة: لا تقولن {مسألة ربط الغيب بالله } ← وظيفة فعلية
- البنية السابعة: قل {مسألة مدة لبثهم } ← وظيفة تبليغية

خطاب خاص للنبي صلى الله عليه وسلم للامتثال

- البنية الثامنة: واتل {أمر بتلاوة القرآن } ← وظيفة فعلية
- البنية التاسعة: واصبر {أمر بصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي } ← وظيفة فعلية
- البنية العاشرة: ولا تعد عيناك عنهم} ← وظيفة فعلية

- البنية الحادية عشر: وقل {تحديد مصدر الحق } ← وظيفة تبليغية
- البنية الثانية عشر: واضرب لهم {قصة الرجلين } ← وظيفة تبليغية
- البنية الثالثة عشر: واضرب لهم {مثل الحياة الدنيا } ← وظيفة تبليغية

خطاب لتوصيل خطاب

- البنية الرابعة عشر: وإذ قلنا للملائكة اسجدوا {قصة إبليس} ← وظيفة تبليغية

على تقدير «أذكر»

- البنية الخامسة عشر: وإذ قال موسى..{قصة موسى مع العبد} ←وظيفة تبليغية

الصالح

على تقدير «اذكر»

- البنية السادسة عشر: قل {تلاوة ذكر من ذي القرنين ← قصة } ← وظيفة تبليغية

ذي القرنين

- البنية السابعة عشر: قل {تحديد مفهوم الأعشرين } ← وظيفة تبليغية

- البنية الثامنة عشر: قل {عدم الإحاطة بعلم الله} ← وظيفة تبليغية

- البنية التاسعة عشر: قل {بشرية الرسول وارتباطها بالسماء عن طريق الوحي} ← وظيفة تبليغية

ويمكن تمثيل السورة من منظور العلاقات الخطابية كما يلي:

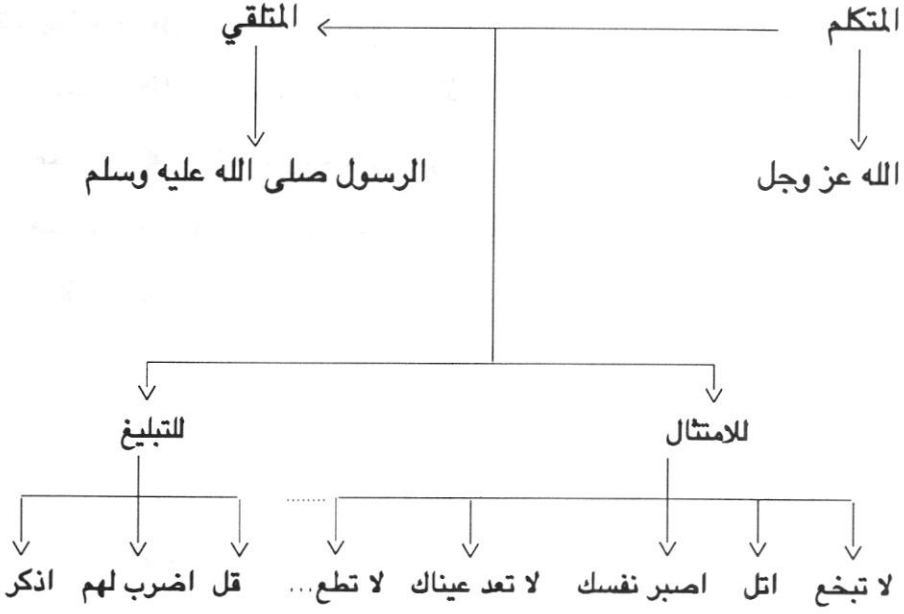

ويسمح هذا التمثيل بالخروج بمجموعة من الملاحظات ترتبط بالسورة كجواب:

1 - المسألة كلها مسألة وحي، وما وظيفة المتلقي الأول (الرسول صلى الله عليه وسلم) إلا التبليغ. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا التبليغ يرتبط بالأفعال التي تدعو إلى الإمتثال أمرا ونهيا وبالأفعال التي تدعو إلى التبليغ. وما دام الأمر يتعلق بالتبليغ فإن البنية الخطابية تكون كما يلي:

ولتوضيح هذه العلاقات نأخذ نموذجين أولهما فيه فعل يدعو إلى الإمتثال وثانيهما فيه فعل يدعو إلى التبليغ.

النموذج الأول: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي»

اصبر ← هناك آمر وهناك مأمور

نفسك ← المأمور (الرسول صلى الله عليه وسلم)

وهكذا نحصل من منظور الإمتثال على:

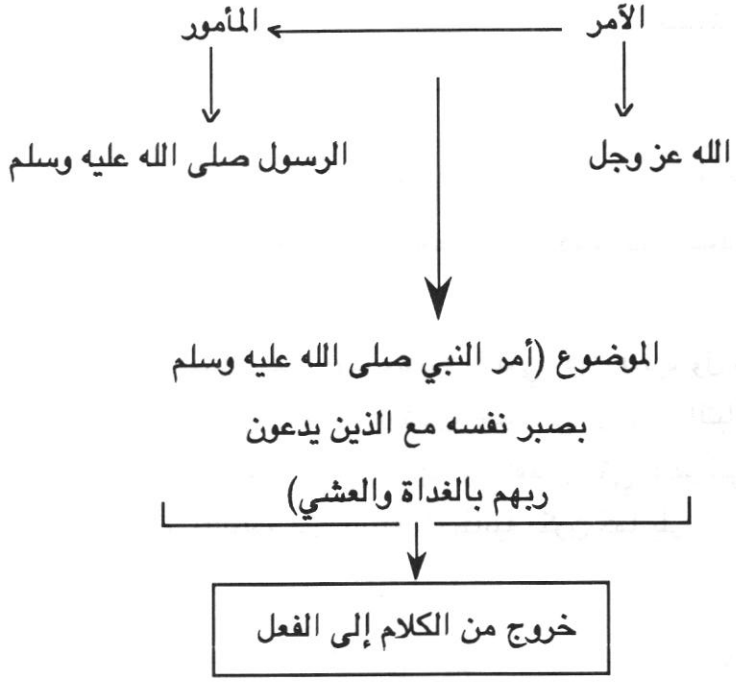

ولكن

«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي» خطاب يدخل في دائرة التبليغ الكبرى. وبهذا الإعتبار يرتبط بالمبلغ له، وبالتالي يمكن الكلام عن امتثال مزدوج الأول يتعلق بصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي والثاني بتبليغ هذا الخطاب إلى غيره(37).

النموذج الثاني: «قل سأتلو عليكم منه ذكرا»

قل ← هناك أمر بالقول وهناك مأمور

عليكم ← المبلغ له

ونحصل بذلك على:

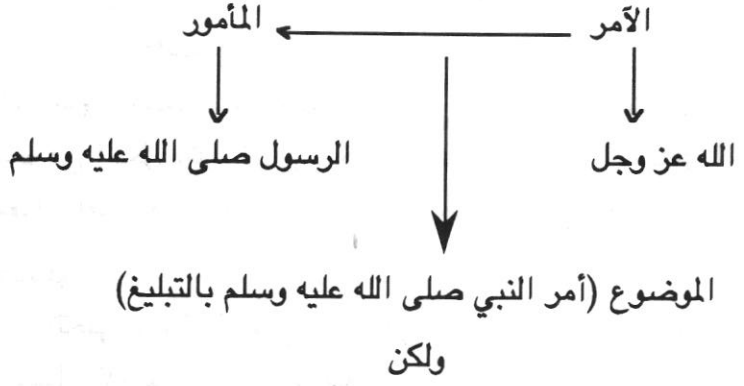

«قل سأتلو عليكم منه ذكرا» خطاب يدخل في دائرة التبليغ الكبرى وبهذا الإعتبار يرتبط بالمبلغ له الآني الذي تحدده عبارة «عليكم» ثم تتعداه إلى المبلغ له العام، فيكون الشكل التالي:

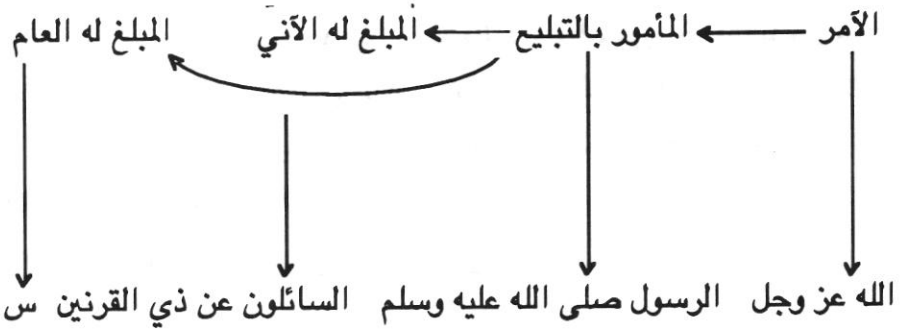

2 - ويؤيد ما ذهبنا إليه في الملاحظة: أن افتتاح السورة بتقرير الحمد لله كان الوحي فيه هو العلة التي تسند هذا الإفتتاح:

الحمد لله	الذي أنزل على عبده الكتاب ....
تقرير	علة

واختتامها ارتبط أيضا بمسألة الوحي، وهذه المرة بشكل مزدوج فهي تتجسد في الفعل «قل» الذي يمكن تحليله على ضوء الأشكال السابقة ثم في مقول القول: «إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ: «قُلْ إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إليّ ....

3 - وتتجلى مسألة الوحي أيضا في أن هذا الذي طرحت عليه الأسئلة على سبيل الإمتحان ماهو إلا مبلغ. فهو يبلغ تبليغا مزدوجا، يبلغ عن ربه بما يوصل الناس إليه وتتحقق بذلك نجاتهم ويبلغ أنه مبلغ لأن الأمر بالتبليغ والأمر بالإمتثال يدخل في الخطاب.

6 - بنية السورة كجواب:

تبين لنا فيما سبق كيف ترد السورة على الذين طرحوا الأسئلة على النبي صلى الله عليه وسلم، إما من خلال بعض السياقات ذات الخاصية

الإحالية كما رأينا ذلك في سياقه، وإما عن طريق البنية الخطابية كما ظهر لنا ذلك في النقطة السابقة، ونحاول في هذه النقطة أن نتعرض إلى السورة كبناء ومدى علاقتها بالجواب عن الأسئلة المطروحة.

وتستوقفنا قبل ذلك مسألة السؤال والجواب في نصوصنا القديمة فهي من المسائل التي حظيت بالإهتمام. وتتجلى أهميتها في أنها تحاول أن تنظر إلى طارح السؤال من خلال الجواب.

أ - مسألة السؤال والجواب

من أهم المسائل التي نجدها عند الزركشي في «البرهان في علوم القرآن» مسألة العلاقة بين السؤال والجواب(38). ولئن كان تناوله لها من زوايا مختلفة، زاوية المطابقة والنقصان والزيادة وزاوية العلاقة بين البنية التركيبية للسؤال والبنية التركيبية للجواب. فإن ما يهمنا في هذا السياق ليس الجانب التركيبي وإنما جانب الزيادة والنقصان في الجواب.

يورد الزركشي في مسألة العدول أن «الأصل في الجواب أن يكون مطابقا للسؤال، إذا كان السؤال متوجها وقد يعدل في الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيها على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك»(38). ويوضح ما ذهب إليه بالأمثلة التالية:

يسألونك عن الأهلة ← سؤال عن حالات التحول: يبدو رقيقا ثم يتزايد قليلا حتى يمتلئ ويستوي

قل هي مواقيت للناس والحج(39) ← الأهم من سؤالكم هو معرفة الغاية من التحول ← عـــدول

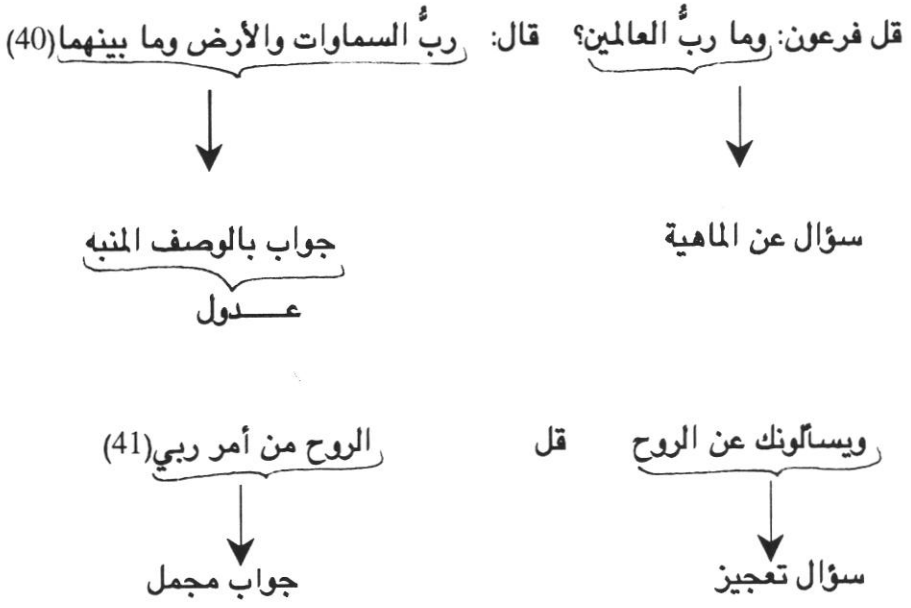

ويكون الجواب أحيانا مطابقا للسؤال، غير أن المجيب لا يكتفي بالجواب بل يضيف إليه. ويورد الزركشي أمثلة للمطابقة مع الزيادة منها:

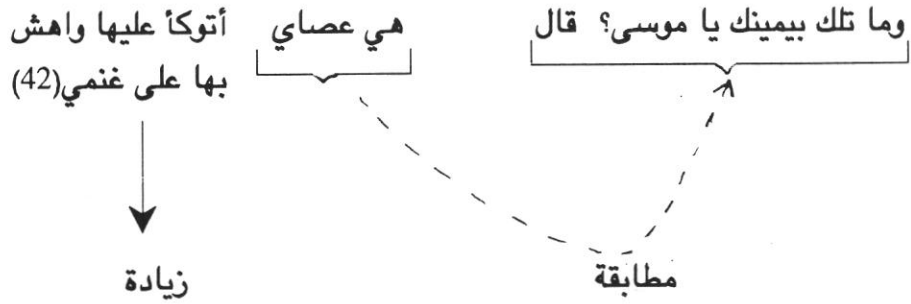

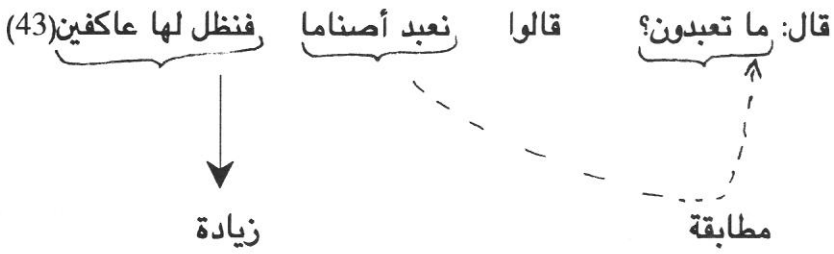

ب - بنية السورة كجواب

حين ننظر إلى سورة الكهف من منطلق أنها جواب على أسئلة وجهت للنبي صلى الله عليه وسلم نجدها في نفس الوقت عدولا من جهة ومن جهة أخرى مطابقة مع الزيادة. وتبني أمثلة الزركشي السابقة التتابع الموجود بين السؤال والجواب. ولو رمزنا للسؤال بـ «أنا» وللجواب بـ«ب» فإننا نحصل على شكل يحدد التتابع كما يلي:

أ ب

وهو ترتيب (ordre) زمني فيه الأسبقية لـ أ والبعدية لـ ب. غير أن بعدية ب تأتي مباشرة بعد أ.

غير أن الجواب في سورة الكهف لم يحقق الشكل السابق، وإنما هناك تكسير لهذا الترتيب. فالسؤالان الموجهان للنبي صلى الله عليه وسلم يتعلقان بأهل الكهف وذي القرنين وطرحهما كان متزامنا، وكان من مقتضيات هذا التزامن أن تكون الإجابة متزامنة. ولو فرضنا أن السؤال عن أهل الكهف هو أَ والسؤال عن ذي القرنين هو أً فإننا نحصل وفق الشكل السابق على

لكن الذي نجده في سورة الكهف ليس تتابعا للجوابين وإنما هناك فواصل بينهما. ويمكن تمثيل هذا الجواب مع السؤال كما يلي:

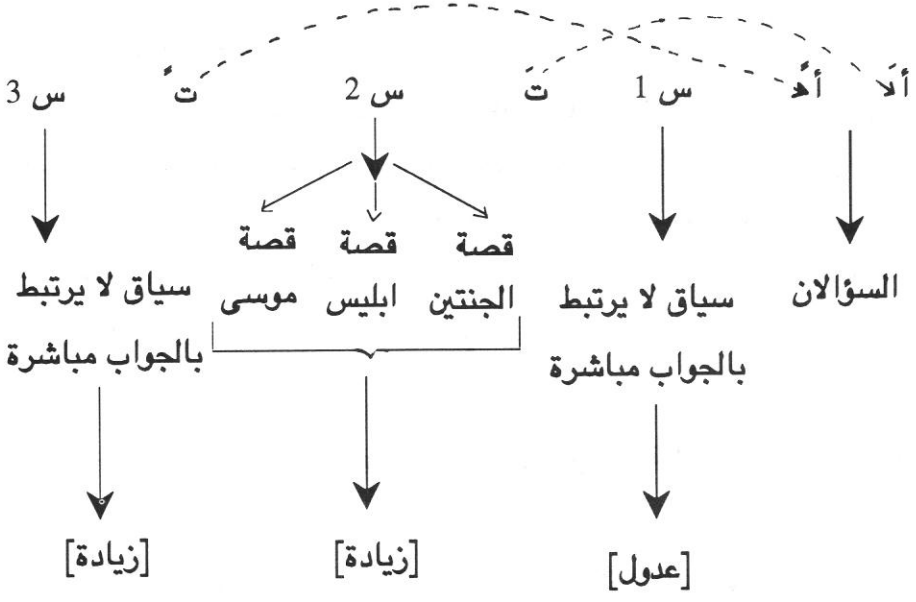

والملاحظة الأولى التي تظهر في الجواب الأول الذي رمزنا له بـ«بَ» أنه قبل أن يعطي الجواب يقدم له بمسألتين تتعلق الأولى بأصحاب الكهف كآية: «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا»، وقد تناولناها أثناء تعرضنا للسياقات الإحالية الواردة في السورة وتتعلق الثانية بالمجيب إذا يربط الجواب بالحق «نحن نقص عليك نبأهم بالحق». أما في

الجواب الثاني «بٌ» فإنه وصف الجواب بالذكر: «قل سأتلوا عليكم منه ذكرا» فالسائل سأل عن قصة رجل والمجيب أجاب عن أمور توصله إلى التذكر. سأتلو عليك ما به التذكر في تفسير الطاهر بن عاشور.

والملاحظة الثانية تتعلق بما جاء بين بَ وبٌ (الجوابين) وهو قصة الجنتين وبعض الإشارات إلى قصة إبليس وقصة موسى مع العبد الصالح. فالمطروح سؤالان عن قصتين والجواب خمس قصص. وكأن في ذلك تعريضا بهؤلاء الذين اقترحوا -طرحوا هذين السؤالين ظنا منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم سيعجز عن الإجابة. وقد أشار بعض المفسرين إلى دلالة التعريض. فالطاهر بن عاشور حينما يصل في تفسيره إلى قصة موسى مع العبد الصالح يورد السياق التالي: «في ذكر قصة تعريض بأحبار بني اسرائيل إذ تهمموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم ونسوا خبرا من سيرة نبيهم»(44). ويورد الرازي في هذا الصدد ما يلي: «... وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة: إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا. وهذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله تعالى أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع، كما أن كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه»(45)

والملاحظة الثالثة هي أن الجوابين أغلقا من اليمين ومن اليسار بداية ونهاية ووسطا كما يوضحه الشكل التالي:

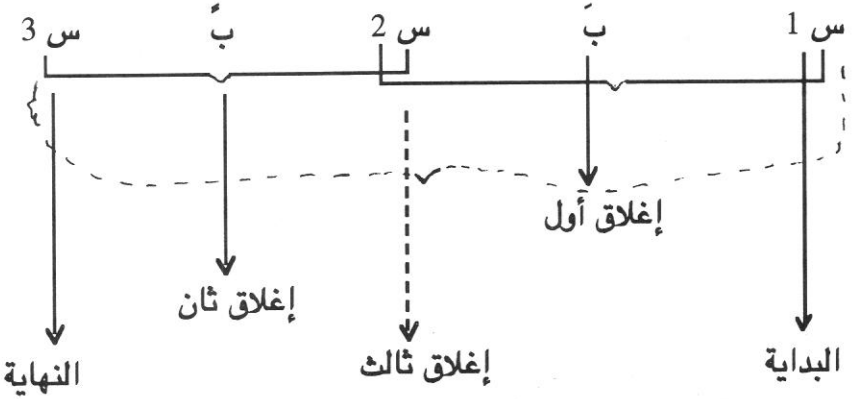

وفي هذا الإغلاق يتشاكل السياق الثاني (س2) مع بَ وبً من حيث أنه قصص (قصة الجنتين، قصة ابليس، قصة موسى) ويتشاكل س1 وس3 من حيث ارتباطهما بمسألة الوحي، ويكون هذا الإغلاق النهائي تأكيدا على أن المسألة كلها مسألة وحي من عند الله وما محمد صلى الله عليه وسلم إلا رسول مكلف بتبليغ رسالة ربه.

ولئن كان سياق البداية (س1) يتقاطع مع سياق النهاية (س3) في الكلام من مسألة الوحي فإن الفرق بينهما أن سياق النهاية يرتبط بالزمن من حيث أن بعد «قل» نجد تحديدا لعلاقة خطابية بين «أنا» (الرسول صلى الله عليه وسلم) و«أنتم» (الذين ما زال ينتابهم شك في أن ما يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم وحي مما دفعهم إلى البحث عن الأسئلة:

قل/إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ

بينما يخرج سياق البداية من هذه الدلالة الزمنية ليربط حمد الله بإنزال الكتاب ربطا تعليليا. وقد أشار الرازي إلى هذا الربط وهو يفسر سورة الفاتحة لأنها افتتحت بـ«الحمد لله». وهذا التفسير ينطلق أساسا من تصور سائل يبلور سؤاله كالتالي:

«الحمد لله» مبنى على أمرين وجود الإله وكونه مستحقا للحمد. فما الدليل على وجود الإله وما الدليل على استحقاقه للحمد. «ولما توجه هذان السؤالان لا جرم ذكر الله تعالى ما يجرى مجرى الجواب عن هذين السؤالين فأجاب في السؤال الأول بقوله «ربّ العالمين» وأجاب عن السؤال الثاني بقوله «الرحمان الرحيم ملك يوم الدين».

ومن هذا المنطق فافتتاح سورة الكهف بقوله تعالى: «الحمد لله» يرتبط بالسباق اللاحق «الذي أنزل على عبده الكتاب ...»ارتباطا تعليليا(47). فمستحق الحمد هو الله لأنه أنزل على عبده الكتاب.

وحين ننظر إلى هذا السياق من منظور علاقة بين مجيب وسائل ينتابه شك في هذا الذي يسمعه فإننا نحصل على ما يلي:

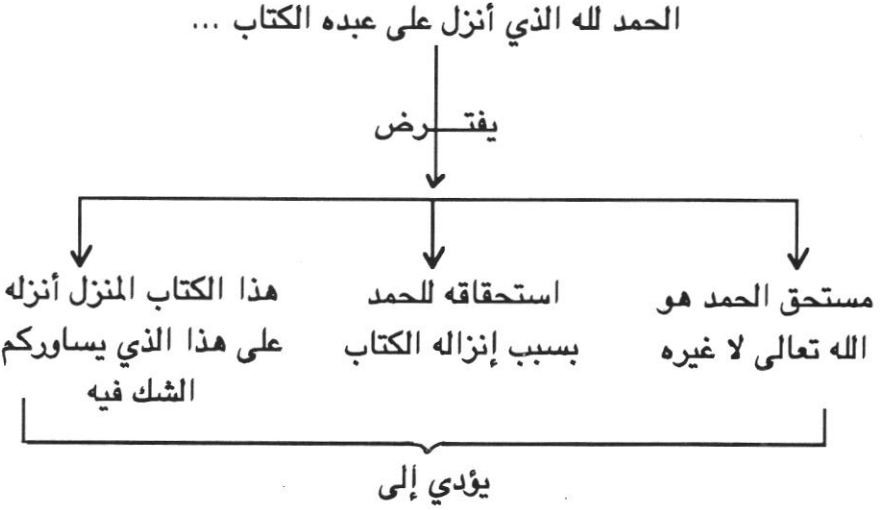

من مقتضيات الأمر، أن يوصلكم هذا الذي أنزلنا على عبدنا إلى حمد المنزل لا إلى التشكيك فيه.

وبالإضافة إلى هذه الدلالة المقامية فإن هذا السياق يخرج إلى دلالة غير زمنية حينما يرتبط بالمتكلم الأول (الله) من منظور دخول المخبر في عموم خبره(48). فهو محمود قبل حمد الحامدين وقبل شكر الشاكرين ومحمود بعد حمد الحامدين وبعد شكر الشاكرين(49).

الهوامش:

(1) - ينظر مجلة اللغة والأدب ع 12، ص 428-459.

(2) - ينظر Ewald LANG, Quand une grammaire de texte est-elle plus adéquate qu'une grammaire de phrase, Langage, p. 26.

(3) - ينظر على سبيل المثال:

- Halliday cohesion in english of J.M. ADAM, Linguistique et discours littéraire.
M. CHAROLLFS, Grammaire de texte, théorie de discours, narrativité.

(4) - ينظر محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 48.

(5) - المرجع نفسه، ص 49.

(6) - المرجع نفسه، ص 50.

(7) - المرجع نفسه، ص 52.

(8) - ينظر ص 29 ؛ Dominique MAINGUENEAU, Pragmatique pour le discours littéraire

(9) - المرجع نفسه، ص 29 والسياق في أصله:

"La cohérence n'est pas tant une propriété attachée au texte que la conséquence des stratégies, des procédures que mettent en oeuvre les lecteurs pour la construire à partir des indications du texte".

(10) - المرجع نفسه، ص 36 والسياق في أصله:

"Dechiffrer un texte, c'est mobiliser un ensemble diversifié de compétences pour

parcourir de manière cohérente une surface discursive orientée temporellement".

(11) - ينظر ص 112 . J.M. ADAM, Eléments de linguistique textuelle.

والسياق في أصله:

"Le texte est un produit connexe, cohésif, cohérent (et non pas une juxtaposition aléatoire de mots, phrases, propositions ou actes d'énonciation".

(12) - المرجع نفسه، ص 12 والسياق الأصلي هو:

L'effet de texte est le produit d'une double complétude: pragmatique (configurationnelle) et séquentielle"

(13) - المرجع نفسه، ص 114 ؛ والسياق الأصلي هو:

"La lecture -compréhension du texte peut être pensée en termes de résolutions de problèmes".

(14) - ينظر لسان العرب، جـ4 ؛ ص 386-387 .

(15) - ينظر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، جـ1، ص 263 .

(16) - ينظر التهافوى، كشاف اصطلاحات الفنون، جـ3 ؛ ص 658 .

(17) - ينظر الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، جـ15، ص 243 .

(18) - سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ4 ؛ ص 2256 .

(19) - ينظر الزمخشري، الكشاف، جـ2 ؛ ص 464 .

(20) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، جـ19 ؛ ص 243 .

(21) - سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ4 ؛ ص 2264 .

(22) - لا بد من الإشارة هنا إلى مسألة الروح، وأن اقتراح السؤال عنها يدخل في إطار الأسئلة المبهمة، فالروح قد يكون المقصود به المقابل للجسد، وقد يكون المقصود به جبريل عليه السلام (الروح الأمين)، وقد يقصد به عيسى بن مريم، وعلى هذا الأساس فإن تكذيب المجيب وارد في كل الحالات لأن لو اعتبر الروح هي المقابل للجسد لقيل له أخطأت لأن قصدنا جبريل وهكذا، ينظر في هذه المسألة الطاهر بن عاشور، جـ15 ؛ ص 197 .

(23) - الرازي، التفسير الكبير، ص 82 .

(24) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، جـ15 ؛ ص 359 .

(25) - سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ4، ص 2256-2297.

(26) -ينظر في مسألة الإحالة الخارجية والإحالة الداخلية:

M.A.K. HALLIDAY, Cohesion in english, p. 48, 53, 58, 63.

(27) - الزمخشري، الكشاف، جـ2، ص 243.

(28) - الرازي، التفسير الكبير، جـ11، ص 83.

(29) - الألوسي، روح المعاني، جـ15، ص 208-209.

(30) - الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، جـ15، ص 259.

(31) - المرجع نفسه، ص 271.

(32) - الألوسي، روح المعاني، جـ15، ص 16.

(33) - يورد مانغنو (MAINGUENEAU) نموذجا لهذا التحليل ما قام به فان ديك (Van Diyk) انطلاقا من افتتاحية رواية هي:

"Votre billet, s'il vous plait, Jacques s'arracha à sa rêverie et fouilla dans la poche intérieure de sa veste".

ويكون تحليل السيناريوهات كالتالي:

أ – المكان: القطار – الميترو – الحافلة

ب – الوظيفة تا (س): مراقب

ع (ص): مسافر

جـ – مميزات س يملك علامات مميزة لرتبته

س في حالة مراقبة

ص: من مقتضيات المقام أن يكون له تذكرة سفر (إذن فهو ليس طفلا ولا مريضا) الخ ...

د – العلاقة: تا (س) في مقام سلطة بالنسبة لـ ع (ص)

هـ – الوضعية: ص مراقب من طرف س.

ويضم إلى هذه السيناريوهات قواعد يفترض أن تكون مشتركة بين الطرفين:

1 - كل مسافر يجب أن تكون له تذكرة.

2 - كل مسافر يجب أن يري تذكرته للمراقب.

3 - المسافر بدون تذكرة يدفع غرامة مالية.

(34) - ينظر MAINGUENEAU, Pragmatique pour le discours littéraire, p. 42-41.

(35) - الألوسي، روح المعاني، جـ 16، ص 24.

(36) - الرازي، التفسير الكبير، جـ11، ص 137.

(37) - يلخص محمد أركون هذه النظرة انطلاقا من دراسته لبنية العلاقات الخطابية في القرآن اعتمادا على مجموعة من الملاحظات استقاها من دراسات BENVENISTE للضمائر كما يلي:

أ – مجموع الخطاب القرآني (discours coranique) يظهر ثلاثة أقطاب:

قائل (locuteur-auteur) والمبلغ– المبلّغ (allocuté-énonciateur)

ومحمد صلى الله عليه وسلم والمبلغ له العام (un destinataire collectif)

ب – يتجلى القائل في أشكال لغوية مختلفة: الضمير «نحن»، الأمر، النداء، الإنذار ...

حـ – المبلغ –المبلغ ليس مبلغا سلبيا (passif) للخطاب المبلغ له العام. فوجود الأسلوب المباشر بعد الفعل «قال» في العربية ينقل هذا المبلغ–المبلغ إلى مرتبة القائل.

د – وبهذا فإنه كلما قرئت آية فإنني أحقق الفعل المقصود عن طريق ما قرأت إما لأني أجدد «الأنا» المتعلق بالقائل وإما بإدراج أناي الخاص.

لمزيد من التفاصيل ينظر، محمد أركون La penseé arabe، ص 10-13.

(38) - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 4، ص 42.

(39) - المرجع نفسه، ص 43.

(40) - المرجع نفسه، ص 43-44.

(41) - المرجع نفسه، ص 44.

يفسر الزركشي قراءته للسؤال على أنه تعجيز أن الروح كلفظ مفتوح على مجموعة من الدلالات فقد تكون روح الإنسان وقد يقصد بها جبريل وقد يقصد بها القرآن وقد يقصد بها عيسى بن مريم وتعدد الدلالات يفتح المجال للسائل للمناورة فلو قال المجيب أن الروح هي «س» مثلا لقال له السائل ليست «س» فأنت مخطئ. فهناك إذن إستراتيجية في طرح السؤال. ويسهل علينا تصور هذه الإستراتيجية إذا انطلقنا من المعطيات المقامية، فهناك باحث عن سؤال وهناك مقترح لسؤال كما أشرنا إلى ذلك أثناء تعرضنا لأسباب النزول.

(42) - المرجع نفسه، ص 43.

(43) - المرجع نفسه، ص 45؛ ويقرأ الزركشي هذا الجواب كما يلي: «زيادة القصد منها إظهار الإبتهاج بعبادتها لزيادة غيظ السائل».

(44) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ص 246.

(45) - الرازي، التفسير الكبير، جـ11، ص 144.

(46) - المرجع نفسه، جـ1، ص 223-224.

(47) - يتناول الطاهر بن عاشور «الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ...» كما يلي:

«الحمد لله»: جملة خبرية تعني أن مستحق الحمد هو الله تعالى لا غيره

«الذي أنزل الكتاب ...»: وصف بالموصول تنويها بمضمون الصلة ولما يفيده الموصول به تعليل الخبر، جـ 15، ص 245.

(48) - المرجع نفسه، جـ1، ص 158.

(49) - من الإشارات اللطيفة عند المفسرين ربط عبارة «الحمد الله» بالمستعمل، فباستعمالها يعكس مجموعة من الدلالات هي:

– من أنا حتى أحمده؟

– محمود بجميع حمد الحامدين

– ليس المراد الحمد الله على النعم الواصلة إليّ بل المراد الحمد لله على النعم الصادرة منه، ينظر الرازي، التفسير الكبير، جـ1، ص 223-224.

ويضاف إلى ذلك أن قوله عز وجل «الحمد لله» حين ننظر إليه من زاوية العلاقات الخطابية فالمتكلم (الله) يتكلم عن نفسه بضمير الغائب. ففي المقام «أنا» وفي السياق «هو» وباعتبار دخول المتكلم في عموم خطابه فإن الذي يصل إليه المتأمل هو:

أنا أقول «الحمد لله» والله هو أنا إذن فالحمد لي

غير أن وجود المتكلم في صيغة ضمير الغائب يفتح المجال للمتلقي ليتكلم عن غيره (الله) باعتبار أن «الأنا» المستعملة للعبارة تختلف عن «هو» (الله) ولا يمكن في هذه الحالة أن يكون أنا = هو.

والمسألة تحتاج إلى بسط أكثر ليس هذا مقامه.

المراجع العربية

- الألوسي أبو الفضل شهاب الدين محمد، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط4، 1985.
- التهانوي محمد علي بن علي، موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية، خياط، بيروت، 1966.
- الرازي محمد فخر الدين، التفسير الكبير، دار الكتب، بيروت، 1983.
- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، 1972.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط3، 1977.
- عاشور محمد الطاهر بن، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
- محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى إنسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، 1991.
- منظور ابن، لسان العرب المحيط.
- مجلة اللغة والأدب، ع 12، معهد اللغة وآدابها، جامعة الجزائر، ديسمبر 1997.

المراجع الأجنبية:

ADAM J.M., Linguistique et discours littéraire, Paris, Larousse, 1976.

- Eléments de linguistique textuelle, Mardaga, 1990.

ARKOUN M., La pensée arabe, P.U.F., 1985.

CHAROLLES M., Grammaire de texte, théorie du discours, narrativité. Pratiques, no 11-12, METZ, 1976.

HALLIDAY M.A.K., Cohesion in english, London, Longman, 1983.

LANG. E., Quand une "Grammaire de texte" est-elle plus adéquante qu'une "Grammaire de phrase"? Langages no 26, Didier-Larousse, 1972.

MAINGUENEAU, Pragmatique pour le discours littéraire, Bordas, Paris, 1990.